الطرق الشرعية والطرق البدعية في المسائل الدعوية

من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية

اعتنى بها

يوسف بن محمد بن إبراهيم العتيق

مصدر هذه المادة :







بسم الله الرحمن الرحيم

التقديم

الحمد لله المعين، والصلاة والسلام على النبي الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

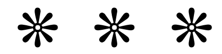
فقد تعدَّدت وسائل الدعوة، وما كان وسيلة كان له حكم الغاية، وفيما اصطنعه الناس من وسائل وأسباب زعموا أنها ذريعة للوصول إلى الحق اصطدم بعضها بالمنهج النبوي والتشريع الرباني، وكان بدعًا في الدين وتشريعًا في أحكامه ووسائله، وفي عصرنا الحاضر تدعو الحاجة إلى بيان الحق بدليله، وتوضيح الحكم بتعليله، وبالأخص في مجال الدعوة ووسائل الإرشاد وما يتفق مع منهج النبوة.

وفي الرسالة التي بين يدي القارئ بمراجعة وتخريج الأخ يوسف بن محمد بن عتيق، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ضرب مثال لتلك الدعوات المنكرة والوسائل المبتكرة من صنع البشر فكان تشريعًا إنسانيًا ربانيًا، ولعل القارئ الكريم يقيس على هذا المثال ما أحدثه الناس زاعمين الوصول بتلك الوسائل المحدثة كمن جعل الدف والمزمار مدخلاً من مداخل إصلاح الناس وتأليفهم، ثم يأتي بيان الهداية ودعوة الضال إلى الصراط المستقيم، لذا فإنه لابد من إعادة النظر فيمن يدعو إلى الله بوسائل ليست من الشرع ولا من الدين، لأن من تعبد الله بغير ما شرع فقد أشرك شرك تشريع، وقد قال

تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ نسأل الله أن يبصر المسلمين بمواطن الضعف وأن يجنبهم سوء الفهم والهوى والتقليد الأعمى إنه جواد كريم، وصلى الله على محمد.

إسماعيل بن سعد بن عتيق

١٨ ذي القعدة ١٤١٧هـ



المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ..

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾(١).

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾(٢).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾(٣).

أما بعد:

إن من أشرف العبادات وأجلها، الدعوة إلى الله، وتبصير الناس بما لهم وما عليهم، قال الله تعالى: ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ

---

(١) سورة آل عمران آية رقم [٢].

(٢) سورة النساء آية رقم [١].

(٣) سورة الأحزاب آيتان رقم [٧٠، ٧١].

الْمُفْلِحُونَ ﴾(١)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾(٢).

وقال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النعم**»(٣). وقال ﷺ: «**من دل على خير فله مثل أجر فاعله**»(٤).

ولما كانت الدعوة إلى الله بهذه المنزلة العظيمة والمكانة العالية، كان لزامًا على كل داعية أن يعرف الطرق الشرعية في الدعوة إلى الله، وألا يكون دافعه في الدعوة العاطفة وحب الخير المجرد من النصوص بالحجج الشرعية، إذ أن الدعوة إلى الله عبادة كسائر العبادات، التي لا يقبلها الله إلا بالشرطين المعروفين عند الجميع، وهما:

أن يكون العمل خالصًا لله.

وأن يكون على سنة رسول الله ﷺ.

أخي القارئ الكريم:

وفي هذه الفتيا النافعة يناقش شيخ الإسلام ابن تيمية الشرط الثاني من شروط قبول العمل، وفيه يتكلم بكلام نفيس عن الطرق الشرعية والطرق البدعية في الدعوة إلى دين الله.

أخي الداعية إلى الله:

---

(١) سورة آل عمران آية [١٠٤].
(٢) سورة آل عمران آية [١١٠].
(٣) أخرجه البخاري (٧/٧٠ رقم ٣٧٠١) ومسلم (٤/١٨٧٢ رقم ٢٤٠٦) عن سهل بن سعد رضي الله عنه.
(٤) أخرجه مسلم (٣/١٥٠٦) عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه.

كم هو عظيم لو جلست مع نفسك جلسة تأمل ورأيت في أي طريق أنت تسير؟

وكم هو جميل لو أنك راجعت حساباتك الدعوية، ورأيت هل أنت تدعو كما كان الأسلاف يدعون؟ أم أنك سرت على غير طريقهم؟

وكم هو عظيم لو أنك استفدت مما أنعم الله به علينا من بعض الوسائل المعينة مما جد في هذه الأزمنة ومع ذلك بقيت على أصالة الأسلاف.

أخي الداعية:

قبل أن تفكر في الناس وكيف تأخذ بهم إلى طريق الجنة، فكر في نفسك على أنت على السنة؟

أخي الداعية:

كلنا نتفق على أن أسلم المناهج وأصوبها هو منهج السلف الصالح رضوان الله عليهم، وكلنا نقول: لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، ولكن عند التطبيق نتحجج بأمور غريبة وكلمات عجيبة، فمنها: أعلم أن عملي هذا خلاف الصواب لكن مصلحة الدعوة كذا وكذا، أو أن هذا صواب لكن من الحكمة كذا وكذا!

وكأن من سار على طريق السلف ليس لديه حكمة! أو أنه لا يراعي مصلحة الدعوة !

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: التفكر مرآة تريك حسناتك

وسيئاتك[١].

أرجو أن يكون فيما سبق دعوة لكل داعية أن يتفكر في نفسه.

أسأل الله عز وجل أن يجمع كلمة الدعاة على الكتاب والسنة وأن يكفيهم شر الشقاق والخلاف.

وأخيرًا أحب أن أشير إليك أخي القارئ أن عملي في هذه الرسالة هو إخراج هذه الفُتيا مع بعض التعليقات اليسيرة وترقيم الآيات القرآنية، وتخريج الأحاديث النبوية[٢].

وأسأل الله أن ينفع بها وأن يجزي شيخ الإسلام خير الجزاء.

وكتبه: يوسف بن محمد العتيق

الرياض ٩/١١/١٤١٧هـ

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (١/٢٢٨-٢٢٧٠ رقم ١٣).

(٢) وهي موجودة بالفتاوى (١١/٦٢٠-٦٣٥).

وقد اطلع ونقل عن هذه الفتيا بعض أهل العلم، انظر: (البيان لأخطاء بعض الكتاب)، لفضيلة الشيخ العلامة صالح الفوزان (ص٣٥٦-٣٦٠)، (تنبيه أولي الأبصار) لفضيلة الشيخ د. صالح بن سعد السحيمي (ص١٧٩-١٨٣).

سئل شيخ الإسلام

علامة الزمان. تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد الله بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن تيمية الحراني ﷺ.

عن «جماعة» يجتمعون على قصد الكبائر: من القتل، وقطع الطريق، والسرقة، وشرب الخمر، وغير ذلك، ثم إن شيخًا من المشايخ المعروفين بالخير واتباع السنة قصد منع المذكورين من ذلك، فلم يمكنه إلا أن يقيم لهم سماعًا يجتمعون فيه بهذه النية، وهو بدف بلا صلاصل، وغناء المغني بشعر مباح بغير شبابة، فلما فعل هذا تاب منهم جماعة وأصبح من لا يصلي ويسرق ولا يزكي يتورع عن الشبهات، ويؤدي المفروضات، ويجتنب المحرمات، فهل يباح فعل هذا السماع لهذا الشيخ على هذا الوجه؟ لما يترتب عليه من المصالح؟ مع أنه لا يمكنه دعوته إلا بهذه؟

فأجاب: الحمد لله رب العالمين.

أصل جواب هذه المسألة وما أشبهها: أن يعلم أن الله بعث محمدًا ﷺ بالهدى، ودين الحق، ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدًا، وأنه أكمل له ولأمته الدين، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[1] وأنه بشر بالسعادة لمن أطاعه والشقاوة لمن عصاه. فقال تعالى:

---

(١) سورة المائدة آية رقم [٣].

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾(٢).

وأمر الخلق أن يردوا ما تنازعوا فيه من دينهم إلى ما بعثه به، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾(٣).

وأخبر أنه يدعو إلى الله وإلى صراطه المستقيم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾(٥).

وأخبر أنه يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويحل الطيبات، ويحرم الخبائث. كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ *

---

(١) سورة النساء آية رقم [٦٩].
(٢) سورة الجن آية رقم [٢٣].
(٣) سورة النساء آية رقم [١٠٨].
(٤) سورة يوسف آية رقم [١٠٨].
(٥) سورة الشورى آية رقم [٥٢، ٥٣].

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[١].

وقد أمر الله الرسول ﷺ بكل معروف ونهى عن كل منكر. وأحل كل طيب، وحرم كل خبيث، وثبت عنه ﷺ في الصحيح أنه قال: «**ما بعث الله نبيًا إلا كان حقًا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم**»[٢].

وثبت عن العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون. قال: فقلنا يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ فقال: «**أوصيكم بالسمع والطاعة، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا. فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة**»[٣].

وثبت عنه ﷺ أنه قال: «**ما تركت من شيء يبعدكم عن النار**

(١) سورة الأعراف آية رقم [١٥٦، ١٥٧].

(٢) أخرجه مسلم (٣/١٤٧٢ رقم ١٤٨٨).

(٣) حديث العرباض بن سارية: أخرجه أحمد (٤/١٢٦) وأبو داود (٥/١٣-١٥ رقم ٤٦٠٧)، والترمذي (٥/٤٣ رقم ٢٦٧٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وصححه شيخ الإسلام في عدة مواضع من كتبه، انظر: شيخ الإسلام ابن تيمية وجهوده في الحديث (٢/٣١٦-٣١٧).

إلا وقد حدثتكم به»[١].

وقال: «**تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك**»[٢].

وشواهد هذا الأصل العظيم الجامع من الكتاب والسنة كثيرة، وترجم عليه أهل العلم في الكتب، كتاب «الاعتصام بالكتاب والسنة» كما ترجم عليه البخاري[٣] والبغوي[٤] وغيرهما فمن اعتصم بالكتاب والسنة كان من أولياء الله المتقين، وحزبه المفلحين. وجنده الغالبين، وكان السلف – كمالك وغيره – يقولون: السنة كسفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق.

وقال الزهري: «كان من مضى من علمائنا يقولون: الاعتصام بالسنة نجاة»[٥].

إذا عرف هذا فمعلوم إنما يهدي الله به الضالين ويرشد به الغاوين ويتوب به على العاصين، لابد أن يكون فيما بعث الله به رسوله من الكتاب والسنة، وإلا فإنه لو كان ما بعث الله به الرسول

---

(١) هو بهذا اللفظ عند الحاكم في المستدرك (٤/٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وله عدة شواهد، طالع تعليق العلامة أحمد شاكر على كتاب الرسالة (ص٩٣) وما بعدها.

(٢) هذا اللفظ رواية من روايات حديث العرباض بن سارية المتقدم قبل قليل.

(٣) فتح الباري (١٣/٢٤٥).

(٤) شرح السنة (١/١٨٩) وهو باب في كتاب الإيمان.

(٥) أخرجه الدارمي (١/٤٤ رقم ٩٧) واللالكائي (١/٩٤) رقم (١٣٦) وابن عبد البر في جامع بيان العلم (١/٥٩٢ رقم ١٠١٨).

ﷺ لا يكفي في ذلك، لكان دين الرسول ناقصًا محتاجًا تتمة.

وينبغي أن يعلم أن الأعمال الصالحة أمر الله بها أمر إيجاب أو استحباب. والأعمال الفاسدة نهى الله عنها.

والعمل إذا اشتمل على مصلحة ومفسدة، فإن الشارع حكيمٌ، فإن غلبت مصلحته على مفسدته شرعه، وإن غلبت مفسدته على مصلحته لم يشرعه، بل نهى عنه.

كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾(٢) ولهذا حرمهما الله تعالى بعد ذلك.

وهكذا ما يراه الناس من الأعمال مقربًا إلى الله، ولم يشرعه الله ورسوله، فإنه لا بد أن يكون ضرره أعظم من نفعه. وإلا فلو كان نفعه أعظم غالبًا على ضرره لم يهمله الشارع، فإنه ﷺ حكيم، لا يهمل مصالح الدين، ولا يفوت المؤمنين ما يقربهم إلى رب العالمين.

إذا تبين هذا فنقول للسائل: إن الشيخ المذكور قصد أن يتوب

---

(١) سورة البقرة آية رقم (٢١٦).

(٢) سورة البقرة آية رقم (٢١٩).

المجتمعين على الكبائر، فلم يمكنه ذلك إلا بما ذكره من الطريق البدعي، يدل أن الشيخ جاهل بالطرق الشرعية التي بها تتوب العصاة، أو عاجز عنها، فإن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين كانوا يدعون من هو شر من هؤلاء من أهل الكفر والفسوق والعصيان بالطرق الشرعية، التي أغناهم الله بها عن الطرق البدعية.

فلا يجوز أن يقال: إنه ليس في الطرق الشرعية التي بعث الله بها نبيه ما يتوب به العصاة، فإنه قد علم بالاضطرار والنقل المتواتر أنه قد تاب من الكفر والفسوق والعصيان من لا يحصيه إلا الله تعالى من الأمم بالطرق الشرعية، التي ليس فيها ما ذكر من الاجتماع البدعي، بل السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان — وهم خير أولياء الله المتقين، من هذه الأمة — تابوا إلى الله تعالى بالطرق الشرعية، لا بهذه الطرق البدعية، وأمصار المسلمين وقراهم قديمًا وحديثًا مملوءة ممن تاب إلى الله واتقاه، وفعل ما يحبه الله ويرضاه بالطرق الشرعية، لا بهذه الطرق البدعية.

فلا يمكن أن يقال: إن العصاة لا تمكن توبتهم إلا بهذه الطرق البدعية، بل قد يقال: إن في الشيوخ من يكون جاهلاً بالطرق الشرعية، عاجزًا عنها، ليس عنده علم بالكتاب والسنة، وما يخاطب به الناس، ويسمعهم إياه، مما يتوب الله عليهم، فيعدل هذا الشيخ عن الطرق الشرعية إلى الطرق البدعية. إما مع حسن القصد، إن كان له دين، وإما أن يكون غرضه الترأس عليهم، وأخذ أموالهم بالباطل، كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ

وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾[١].

فلا يعدل أحد عن الطرق الشرعية إلى البدعية إلا لجهل، أو عجز، أو غرض فاسد، وإلا فمن المعلوم أن سماع القرآن هو سماع النبيين والعارفين، والمؤمنين.

قال تعالى في النبيين: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[٢].

وقال تعالى في أهل المعرفة: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾[٣].

وقال تعالى في حق أهل العلم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[٤].

وقال في المؤمنين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ *

---

(١) سورة التوبة آية رقم [٣٤].
(٢) سورة مريم آية رقم [٥٨].
(٣) سورة المائدة آية رقم [٨٣].
(٤) سورة الإسراء آية رقم [١٠٧، ١٠٩].

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ ﴾(٢).

وبهذا السماع هدى الله العباد، وأصلح لهم أمر المعاش والمعاد وبه بعث الرسول ﷺ، وبه أمر المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان. وعليه كان يجتمع السلف، كما كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا اجتمعوا أمروا رجلاً منهم أن يقرأ وهم يستمعون.

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول لأبي موسى: (ذكرنا ربنا)(٣)، فيقرأ أبو موسى وهم يستمعون.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه مر بأبي موسى الأشعري وهو يقرأ، فجعل يستمع لقراءته. وقال: «**لقد أوتي هذا مزمارًا من مزامير آل داود**»(٤). وقال: «**مررت بك البارحة وأنت تقرأ فجعلت**

---

(١) سورة الأنفال آية رقم [٢-٤].
(٢) سورة الزمر آية رقم [٢٣].
(٣) وفي رواية: (شوقنا إلى ربنا)؛ أخرجه الدرامي (٢/٣٣٩ رقم ٣٤٩٦، ٣٤٩٩)، وعبد الرزاق (٢/٤٨٦ رقم ٤١٨١)، وابن سعد في الطبقات (٤/١٠٩) وابن حبان، (١٦/١٦٩).
(٤) أخرجه البخاري (٩/٩٢ رقم ٥٠٤٨)، ومسلم (١/٥٤٦ رقم ٧٩٣).

أستمع لقراءتك(١). فقال: لو علمت أنك تسمعني لحبرته لك تحبيرًا»(٢) أي: لحسنته لك تحسينًا.

وفي الصحيح أنه ﷺ قال لابن مسعود: «**اقرأ علي القرآن**، فقال: اقرأ عليك القرآن وعليك أُنزل؟ فقال: **إني أحب أن أسمعه من غيري**. قال: فقرأت عليه سورة النساء حتى وصلت إلى هذه الآية ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾ قال لي: **حسبك**، فنظرت إليه فإذا عيناه تذرفان من البكاء»(٣). وعلى هذا السماع كان يجتمع القرون الذين أثنى عليهم النبي ﷺ حيث قال: «**خير القرون الذي بُعِثت فيهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»(٤).

ولم يكن في السلف الأول سماع يجتمع عليه أهل الخير إلا هذا، لا بالحجاز، ولا باليمن، ولا بالشام، ولا بمصر، والعراق، وخراسان، والمغرب. وإنما حدث السماع المبتدع بعد ذلك.

وقد مدح الله أهل هذه السماع، المقبلين عليه. وذم المعرضين عنه. وأخبر أنه سبب الرحمة. فقال تعالى: ﴿**وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا**

---

(١) أخرجه مسلم (٥٤٦/١).
(٢) قال الحافظ في الفتح (٩٣/٩): على شرط مسلم.
(٣) أخرجه البخاري (٩٤/٩ رقم ٥٠٥٠) ومسلم (٥٥/١ رقم ٨٠٠).
(٤) أخرجه البخاري (٢٥٩/٥ رقم ٢٦٥٢) ومسلم (١٩٥٢/٤ رقم ٢٥٥٣).
(٥) سورة الأعراف آية رقم [١٠٢].

صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾[(١)].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾[(٣)].

وقال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾[(٤)].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾[(٥)].

وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾[(٦)].
ومثل هذا في القرآن كثير يأمر الناس باتباع ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة، ويأمرهم بسماع ذلك.

وقد شرع الله تعالى السماع للمسلمين: في المغرب، والعشاء،

(١) سورة الفرقان آية رقم [٧٣].
(٢) سورة الحديد آية رقم [١٦].
(٣) سورة الأنفال آية رقم [٢٢].
(٤) سورة المدثر آية رقم [٤٩-٥١].
(٥) سورة الكهف آية رقم [٥٧].
(٦) سورة طه آية رقم: [١٢٣-١٢٦].

والفجر، وقال تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[(١)].

وبهذا مدح عبد الله بن رواحة النبي ﷺ حيث قال:

وفينا رسول الله يتلو كتابه
إذا أنشق معروف من الفجر ساطع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه
إذا استثقلت بالكافرين المضاجع
أتى بالهدى بعد العمى فقلوبنا
به موقنات إنما قال واقع [(٢)]

وأحوال أهل هذا السماع مذكورة في كتاب الله، من وجل القلوب، ودمع العيون، واقشعرار الجلود. وإنما حدث سماع الأبيات بعد هذه القرون، فأنكره الأئمة، حتى قال الشافعي رحمه الله: خلفت ببغداد شيئًا أحدثته الزنادقة، يسمونه التغبير، يزعمون إنه يرقق القلوب يصدون به الناس عن القرآن.

وسئل الإمام أحمد عنه فقال: محدث. فقيل له: أنجلس معهم فيه؟ فقال: لا يجلس معهم[(٣)].

والتغبير هو: ضرب بالقضيب على جلودهم، من أمثل أنواع

---

(١) سورة الإسراء آية رقم [٧٨].
(٢) أخرجه البخاري (٣/٣٩ رقم ١١٥٥) وفيه تقديم البيت الثالث على البيت الثاني.
(٣) انظر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للخلال (ص٩٧-٩٩) وذم ما عليه مدعو التصوف (ص٧).

السماع. وقد كرهه الأئمة فكيف بغيره، والأئمة المشايخ الكبار لم يحضروا هذا السماع المحدث مثل الفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والسري السقطي، وأمثالهم. ولا أكابر الشيوخ المتأخرين مثل: الشيخ عبد القادر، والشيخ عدي، والشيخ أبي مدين، والشيخ أبي البيان، والشيخ أبي القاسم الحوفي، والشيخ علي بن وهب، الشيخ حياة، وأمثالهم، وطائفة من الشيوخ حضروه ثم رجعوا عنه [(١)].

وسئل الجنيد عنه فقال: من تكلف السماع فتن به، ومن صادفه السماع استراح به.

فبين الجنيد أن قاصد هذا السماع صار مفتونًا، وأما من سمع ما يناسبه بغير قصد فلا بأس. فإن النهي إنما يتوجه إلى الاستماع، دون السماع ولذا لو مر الرجل بقوم يتكلمون بكلام محرم لم يجب عليه سد أذنه، لكن ليس له أن يستمع من غير حاجة، ولهذا لم يأمر النبي ﷺ ابن عمر بسد أذنيه لما سمع زمارة الراعي، لأنه لم يكن مستمعًا بل سامعًا[(٢)] وقول السائل وغيره: هل هو حلال؟ أو حرام؟ لفظ مجمل

(١) لمعرفة حال بعض من ذكرهم شيخ الإسلام هنا وغيرهم ممن اشتهر بالتصوف، ونسب إليه: طالع: التصوف في ميزان البحث والتحقيق، لفضيلة الشيخ: عبد القادر بن حبيب الله السندي، الجزء الأول.

(٢) أخرجه أحمد (٦/٢٤٥-٢٤٦ رقم ٤٥٣٥ شاكر)، وأبو داود (٥/٢٢٢ رقم ٤٩٢٤) وقال محمد شمس الحق العظيم أبادى: سنده قوي جيد، وصححه أحمد شاكر والألباني.

=

فيه تلبيس، يشتبه الحكم فيه حتى لا يحسن كثير من المفتين تحرير الجواب فيه، وذلك أن الكلام في السماع وغيره من الأفعال على ضربين:

(أحدهما) أنه هل هو محرم؟ أم غير محرم؟ بل يفعل كما يفعل سائر الأفعال التي تلتذ بها النفوس، وإن كان فيها نوع من اللهو واللعب كسماع الأعراس، وغيرها مما يفعله الناس لقصد اللذة واللهو، لا لقصد العبادة والتقرب إلى الله.

و (النوع الثاني) أن يفعل على وجه الديانة، والعبادة، وصلاح القلوب، وتجريد حب العباد لربهم، وتزكية نفوسهم، وتطهير قلوبهم، وأن تحرك من القلوب الخشية، والإنابة والحب، ورقة القلوب، وغير ذلك مما هو من جنس العبادات، والطاعات، لا من جنس اللعب والملهيات.

فيجب الفرق بين سماع المتقربين، وسماع المتلعبين، وبين السماع الذي يفعله الناس في الأعراس، والأفراح، ونحو ذلك من العادات، وبين السماع الذي يفعل لصلاح القلوب، والتقرب إلى رب السموات، فإن هذا يسأل عنه: هل هو قربة وطاعة؟ وهل هو طريق إلى الله؟ وهل لهم بد من أن يفعلوه لما فيه من رقة قلوبهم، وتحريك وجدهم لمحبوبهم، وتزكية نفوسهم، وإزالة القسوة عن قلوبهم، ونحو

= ---

انظر: عون المعبود (٢٦٨/٣) وصحيح أبي داود (٩٣٩/٣ رقم ٤١١٦)، وانظر: تعليق الأخ الفاضل الشيخ مشهور بن حسن، على كتاب: الأمر بالاتباع (ص١٠١ وما بعدها).

ذلك من المقاصد التي تقصد بالسماع كما أن النصارى يفعلون مثل هذا السماع في كنائسهم على وجه العبادة والطاعة، لا على وجه اللهو واللعب.

إذا عرف هذا فحقيقة السؤال: هل يباح للشيخ أن يجعل هذه الأمور التي هي: إما محرمة؟ أو مكروهة؟ أو مباحة؟ قربة وعبادة وطاعة وطريقة إلى الله يدعو بها إلى الله ويتوب العاصين، ويرشد به الغاوين، ويهدي به الضالين.

ومن المعلوم أن الدين له «أصلان» فلا دين إلا ما شرع الله، ولا حرام إلا ما حرم الله، والله تعالى عاب على المشركين أنهم حرموا ما لم يحرمه الله، وشرعوا دينًا لم يأذن به الله.

ولو سئل العالم عمن يعدو بين جبلين: هل يباح له ذلك؟ قال: نعم، فإذا قيل: إنه على وجه العبادة كما يسعى بين الصفا والمروة، قال: إن فعله على هذا الوجه حرام منكر، يستتاب فاعله، فإن تاب وإلا قتل.

ولو سئل: عن كشف الرأس، ولبس الإزار، والرداء: أفتى بأن هذا جائز، فإذا قيل: إنه يفعله على وجه الإحرام، كما يحرم الحاج، قال: إن هذا حرام منكر.

ولو سئل: عمن يقوم في الشمس. قال: هذا جائز. فإذا قيل: إنه يفعله على وجه العبادة؟ قال: هذا منكر. كما روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً قائمًا في الشمس،

فقال: «**من هذا؟**» قالوا: هذا أبو إسرائيل يريد أن يقوم في الشمس ولا يقعد، ولا يستظل، ولا يتكلم، فقال النبي ﷺ: «**مروه فليتكلم وليجلس، وليستظل، وليتم صومه**»(١)، فهذه لو فعله لراحة، أو غرض مباح لم ينه، لكن لما فعله على وجه العبادة نُهي عنه.

وكذلك لو دخل الرجل بيته من خلف البيت، لم يحرم عليه ذلك، ولكن إذا فعل ذلك على أنه عبادة كما كان يفعلون في الجاهلية، كان أحدهم إذا أحرم لم يدخل تحت سقف(٢). فنهوا عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾.

فبين سبحانه أن هذا ليس ببر، وإن لم يكن حرامًا. فمن فعله على وجه البر والتقرب إلى الله كان عاصيًا، مذمومًا، مبتدعًا، والبدعة أحب إلى إبليس من المعصية، لأن العاصي يعلم أنه عاصٍ فيتوب، والمبتدع يحسب أن الذي يفعله طاعة فلا يتوب.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٦/١١ رقم ٦٧٠٤)، وأبو داود (٥٩٩/٣ رقم ٣٣٠٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٢١/٣ رقم ١٨٠٣): عن البراء بن عازب ﷺ قال: نزلت هذه الآية فينا، كانت الأنصار إذا حجوا فجاءوا لم يدخلوا من قبل أبواب بيوتهم، ولكن من ظهورها، فجاء رجل من الأنصار فدخل من قبل بابه فكأنه عُيِّرَ بذلك. فنزلت ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾. وانظر: تفسير ابن جرير (٥٥٥/٣-٥٦٠) وتفسير ابن كثير (٢٢٦/١-٢٢٧).

ولهذا من حضر السماع للعب واللهو لا يعده من صالح عمله، ولا يرجو به الثواب، وأما من فعله على أنه طريق إلى الله تعالى فإنه يتخذه دينًا، وإذا نُهي عنه كان كمن نُهي عن دينه، ورأى أنه قد انقطع عن الله، وحرم نصيبه من الله تعالى إذا تركه. فهؤلاء ضلال باتفاق علماء المسلمين، ولا يقول أحد من أئمة المسلمين: إن اتخاذ هذا دينًا وطريقًا إلى الله تعالى أمر مباح، بل من جعل هذا دينًا وطريقًا إلى الله تعالى فهو ضال، مفتر، مخالف لإجماع المسلمين. ومن نظر إلى ظاهر العمل وتكلم عليه، ولم ينظر إلى فعل العامل ونيته كان جاهلاً متكلمًا في الدين بلا علم.

فالسؤال عن مثل هذا أن يقال: هل ما يفعله هؤلاء طريق وقربة وطاعة لله تعالى يحبها الله ورسوله أم لا؟ وهل يثابون على ذلك أم لا؟ وإذا لم يكن هذا قربة وطاعة وعبادة لله، ففعلوه على أنه قربة وطاعة وعبادة وطريق إلى الله تعالى. هل يحل لهم هذا الاعتقاد؟ وهذا العمل على هذا الوجه؟

وإذا كان السؤال على هذا الوجه لم يكن للعالم المتبع للرسول ﷺ أن يقول: إن هذا من القرب والطاعات، وأنه من أنواع العبادات، وأنه من سبيل الله تعالى وطريقه الذي يدعو به هؤلاء إليه، ولا أنه مما أمر الله تعالى به عباده: لا أمر إيجاب، ولا أمر استحباب، وما لم يكن من الواجبات والمستحبات فليس هو محمودًا، ولا حسنة، ولا طاعة، ولا عبادة، باتفاق المسلمين.

فمن فعل ما ليس بواجب ولا مستحب على أنه من جنس الواجب أو المستحب فهو ضال مبتدع، وفعله على هذا الوجه حرام بلا ريب، لا سيما كثير من هؤلاء الذين يتخذون هذا السماع المحدث طريقًا يقدمونه على سماع القرآن وجدًا وذوقًا. وربما قدموه عليه اعتقادًا، فتجدهم يسمعون القرآن بقلوب لاهية، وألسن لاغية، وحركات مضطربة، وأصوات لا تقبل عليه قلوبهم، ولا ترتاح إليه نفوسهم، فإذا سمعوا «المكاء» و «التصدية» أصغت القلوب، واتصل المحبوب بالمحب، وخشعت الأصوات، وسكنت الحركات، فلا سعلة، ولا عطاس، ولا لغط، ولا صياح. وإن قرءوا شيئًا من القرآن، أو سمعوه كان على وجه التكلف والسخرة، كما لا يسمع الإنسان ما لا حاجة له به ولا فائدة له فيه، حتى إذا ما سمعوا مزمار الشيطان أحبوا ذلك وأقبلوا عليه وعكفت أرواحهم عليه.

فهؤلاء جند الشيطان، وأعداء الرحمن، وهم يظنون أنهم من أولياء الله المتقين، وحالهم أشبه بحال أعداء الله المنافقين فإن المؤمن يحب ما أحبه الله تعالى، ويبغض ما أبغض الله تعالى، ويوالي أولياء الله، ويعادي أعداء الله، وهؤلاء يحبون ما أبغض الله، ويبغضون ما أحب الله ويوالون أعداء الله، ويعادون أولياءه، ولهذا يحصل لهم تنزلات شيطانية بحسب ما فعلوه من مزامير الشيطان، وكلما بعدوا عن الله ورسوله وطريق المؤمن قربوا من أعداء الله ورسوله، وجند الشيطان.

فيهم من يطير في الهواء والشيطان طائر به[١]. ومنهم من يصرع الحاضرين وشياطينه تصرعهم، وفيهم من يحضر طعامًا وإدامًا، ويملأ الإبريق من الهواء والشياطين فعلت ذلك، فيحسب الجاهلون أن هذه من كرامات أولياء الله المتقين، وإنما هي من جنس أحوال الكهنة والسحرة وأمثالهم من الشياطين، ومن يميز بين الأحوال الرحمانية والنفسانية والشيطانية لا يشتبه عليه الحق بالباطل.

وقد بسطنا الكلام على «مسألة السماع» وذكرنا كلام المشايخ فيه في غير هذا الموضع، وبالله التوفيق، والله أعلم، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

* * *

(١) ومن جميل ما قيل في هذا:

وقال بعض السادة الصوفية ... مقالة جليلة صفية
إذا رأيت رجلاً يطير ... أو فوق ماء قد يسير
ولم يقف عند حدود الشرع ... فإنه مستدرج وبدعي
واعلم بأن الخارق الرباني ... لتابع السنة والقرآن
والفرق بين الإفك والصواب ... يعرف بالسنة والكتاب
والشرع ميزان الأمور كلها ... وشاهد لفرعها وأصلها
والشرع نور الحق منه بدا ... وانفجرت منه ينابيع الهدى

منشور الهداية (ص١٢٢).